

عنوان البرنامج: مدخل إلى الفكر العقدي السني
الوحدة الثالثة: الأعلام الكبار للفكر الأشعري
الدرس الرابع: فخر الدين الرازي (606-543هـ)
اسم المحاضر: الدكتور جمال علال البختي

فخر الدين الرازي (606-543هـ)

بعد الغزالي والشهرستاني (ت: 548هـ/1153) - صاحب كتاب «الملل والنحل» وكتاب «نهاية الإقدام في علم الكلام» - وغيرهما سيدخل علم الكلام الأشعري مرحلة جديدة تميزت بامتزاج قضايا الكلام بالفلسفة. كان ذلك على يد المتكلم الفيلسوف فخر الدين الرازي (ت: 606هـ/1209م)، هذا الأشعري الذي أخذ ينحو بمدرسته منحى جديدا وغريبا عن روح المذهب في القديم. فمن هو الفخر الرازي؟ وما مركزه في تاريخ الفكر الأشعري؟

التعريف به وبمؤلفاته:

ولد فخر الدين الرازي بمدينة الري عام: 543هـ/1148م، وتلمذ لوالده ضياء الدين عمر بن الحسن الذي كان من الأصوليين والفقهاء المشتغلين بعلم الخلاف، وألف كتبا في الزهد والوعظ والأصول. درس الفخر على والده اللغة وعلوم الدين، ودرس العلوم العقلية على أستاذه مجد الدولة الجيلي بمدينة مراغة (قرية مشهورة بأذربيجان). وارتقى به مركزه العلمي حتى صار له تلاميذ كانوا علماء بعده من أشهرهم: زين الدين الكشي، وشهاب الدين المصري.

كان الرازي قوي الذكاء، متقن العبارة، قويا في علم الطب ومباحثه، كما تميز في الأدب والعربية والفارسية، وله شعر باللغتين العربية والفارسية. وكان طلاب العلم يقصدونه من كافة البلدان يعشقون مجلسه والاستماع إليه، وكان يعقد مجالسه العلمية حيثما حل في بلاد فارس، وخراسان، وبلاد ما وراء النهر، وكان يقرب منه في حلقات درسه تلاميذه الكبار، وبقية الطلاب والأمراء والعظماء من مستمعيه في حلقات تتلوها حلقات.

غادر الفخر الريّ قاصداً بخارى ليكتسب جديداً من العلم، ويكسب بعض المال وكانت بخارى ما زالت منارة من منارات العلم والمعرفة، ونزل في الطريق بخوارزم وعقد بها حلقة للعلم تحدث فيها بالفارسية والعربية بآراء لم ترض أهل خوارزم فأخرجوه منها، وقصد بخارى فوجد أهلها مثل أهل خوارزم، وعانى من الفقر والجوع، فأوى إلى مسجد الجامع إلى أن رعاه رجل من أهل بخارى، وجمع له مالا من أموال الصدقات. وعاد فخر الدين الرازي بعد ذلك إلى الري وأمن إلى طبيب حاذق له ثروة وله بنتان تزوج إحداهما، وتوفي هذا الطبيب بعد ذلك فورث ابنته ثروة لا بأس بها. والتحق فخر الدين الرازي بالسلطان شهاب الدين الغوري صاحب غزنة، فبالغ في إكرامه، ثم توجه إلى خراسان، واتصل بالسلطان خوارزم شاه محمد بن تكش، ويقال إنه قد أرسله رسولا إلى الهند في بعض أموره.

ومن بعد خراسان توجه فخر الدين الرازي إلى هراة (مدينة في أفغانستان)، حيث قرر الإقامة مع أهله وولديه بها، واستقر في أواخر حياته بهذه المدينة، وصارت له بها دار فخمة أعطاها له السلطان خوارزم شاه الذي كان حريصا دائما على حضور مجالسه العلمية، وظل على هذه الحال إلى أن وافته منيته، فدفن بظاهر هراة عند جبل قريب منها عام 606هـ / 1209م.

وفخر الدين الرازي بمحمل مؤلفاته هو أول من ابتكر الترتيب وفق قواعد المنطق في كتبه، من حيث ترتيب المقدمات واستنباط النتائج مراعيًا التقسيم إلى أبواب، وتقسيم الأبواب إلى فصول، وتقسيم الفصول إلى مسائل فلا تشذ منه مسألة، حتى انضبطت له القواعد، وانحصرت معه المسائل.

وقد ألف فخر الدين الرازي كتبا كثيرة، وشرح كتبا أقل في شتى العلوم والفنون في عصره، خلال حياة امتدت أربعة وستين عاما. ومن أهم هذه المؤلفات: - «شرح الإشارات والتنبيهات» لابن سينا. و«المباحث الشرقية في علم الإلهيات والطبيعات»، و«رسالة في علم الهيئة». و«المطالب العالية من العلم الإلهي»، و«محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين»، و«كتاب معالم أصول الدين»، و«المسائل الخمسون»، و«الأربعون»، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» و«نهاية العقول»... وغيرها.

1-1- موقعه في تاريخ الأشعرية:

تأثر الرازي - خصوصا في كتابه: «المباحث المشرقية» بأرسطو وبفلاسفة الإسلام كالفارابي (ت: 339هـ/950م) وبمحمد بن زكريا الرازي (ت: 311هـ/923م) وابن سينا (ت: 428هـ/1036م)، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا بأن آراء فخر الدين في كتابه المذكور إن هي في الواقع إلا حصيلة لآراء هؤلاء الفلاسفة.

وقد أعلن الرازي عن انتمائه الأشعري في جل مؤلفاته، فرغم تأثره البالغ بالمنهج والآراء الفلسفية إلا أن ذلك لم يمنعه من الدفاع عن مذهبه السني. وهذا صحيح - إلى حد ما - لأن الرازي لم يخالف أصول المذهب إلا في قضايا معينة بفعل التأثير السابق، وظل وفيها لأهم أصول الأشاعرة العقدية في غير كتاب «المباحث» ذي النزعة الفلسفية المحضة. أما كتبه الأخرى ك: «المسائل الخمسون» و«محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين»، فإنها تبقى - كما قال ذلك هو نفسه - ذات نفس أشعري وروح سنية واضحة. أما القضايا التي خالف فيها مذهبه فهي قليلة مثل قوله بأن الله لا يصدق عليه الخلق في الأزل؛ لأن الخلق لا يتقدّر إلا عند وجود المخلوق، وهذا مخالف لرأي الأشاعرة الذين قالوا بأن الله يسمى خالقا في الأزل.

ومن ذلك مخالفته الأشعري في مسوغ الرؤية الأخروية، حيث اعتبر أن ما ارتكز عليه الأشاعرة في إثبات ذلك (وهو الوجود) ليس دليلا مقنعا، وإنما الدليل على ذلك هو السمع وحده. وقد قدم أكثر من اثني عشر اعتراضا على الأشعري في ذلك.

كما خالف الرازي الأشاعرة في موضوع القدرة الحادثة؛ حيث أكد أن القدرة من غير جهات حصول الفعل يجوز أن تكون قبل الفعل.

بالإضافة إلى ذلك فقد اعتمد الرازي على العقل اعتمادا كبيرا قربه من منهج المعتزلة؛ إذ يرى أن العقل ينبغي أن يكون قائدا والنقل مقودا، لأن «القدح في العقل لتصحيح النقل - يقول الرازي - يؤدي إلى القدح في العقل والنقل معا وهو باطل».

وخلاصة القول فإن الرازي كان متكلمًا أشعريا من حيث الموقف والقضايا، ولكنه كان أكثر عقلانية من حيث المنهج وأسلوب الاستدلال، وأنه داخل الفلسفة فأثرت فيه وفي فكره فصار متكلم الفلاسفة وفيلسوف المتكلمين. وبسبب هذا التوجه شهد الفكر الأشعري طورا جديدا وقع فيه الخلط بين ما هو فلسفي وما هو كلامي، وصار لزاما على الباحثين في العقائد أن يتقنوا الفلسفة ومباحثها قبل التأليف في العقيدة وعلم الكلام.

إن من أبرز أشعري هذه الفترة الذين ساروا على هدي فخر الدين الرازي: سيف الدين الآمدي (ت: 631هـ/1233م) الذي تعاطى لدراسة الفلسفة وعمل على تدريسها بالقاهرة مما عرضه للاضطهاد بسبب اتهامه في عقيدته. وقد ترك لنا مؤلفات لها وزن كبير في الفكر الأشعري لا سيما كتاب: «أبكار الأفكار» الذي اعتمد عليه جل الأشاعرة المتأخرين، وكتاب: «غاية المرام في علم الكلام»، وغيرهما.

ومن نفس الفترة نجد المفكر الأشعري الشهير: عضد الدين الإيجي (ت:756هـ/1355م) صاحب كتاب: «المواقف في علم الكلام» الذي يشكل – كما قلنا سلفا – إلى جانب كتاب الرازي: «المباحث المشرقية» نموذجين للمدرسة الأشعرية الجديدة ذات التوجه الفلسفي الخاص. ومع ذلك فيلزم التنويه إلى الدقة والاختزال والتركيز التي ألف الإيجي عليها مؤلفه المذكور، فهو كتاب ممنهج بصورة رياضية. وإلى هذا الطور من أطوار تطور الفكر الأشعري ينتمي جلال الدين الدواني شارح «العقائد العضدية» وغيره كالبيضاوي وغيرهما.

إلى هنا نكون قد ألمنا إلمامة متواضعة بأهم أعلام الفكر الأشعري في مراحلها الأساسية: الأولى، والوسطى، والأخيرة، وفي الوحدة اللاحقة –بحول الله–، سننتقل إلى الحديث بتركيز عن أهم المضامين العقدية التي تمت معالجتها عند هؤلاء الأشاعرة وغيرهم في مؤلفاتهم ونقاشاتهم الكلامية، فإلى ذلكم الحين أستودعكم الله، والسلام عليكم.